

أثر الصلاة في النفس والمجتمع



إنّ أَهْمَّ الْأَمْوَارِ الَّتِي تَحْقِقُهَا الصَّلَاةُ هِيَ مَسَأْلَةُ (الإِيمَانُ بِالْغَيْبِ) إِيمَانًا مُتَعَدِّيًّا إِلَى كُلِّ الْمَشَاعِرِ (الْأَنْذَرِينَ يُؤْفَ مَذْوَنَ بِالْغَيْبِ وَيُؤْكَلُمُونَ الصَّلَاةَ) (البقرة/3).

والإيمان بالغيب نافذة الارتباط بالعالم المقدّس، وطريق الخلام من أسر الحواس، والارتباط بتلك القوّة الكبرى الحالية للعالم بكلّ ما في ذلك الارتباط من عطاء.

وأوّل حلقة بل أهم حلقة في ذلك مسألة الإيمان باه العظيم، ونفي كلّ قوّة مؤثّرة سواه، وربط الكون وظواهره به تعالى فيردد المصلي في مقدّمة الصلاة وفي أثنائها الشهادة الإسلامية الكبرى (أشهد أن لا إله إلا الله): شهادة تستدعي عبودية مطلقة له تعالى، واستعاناً مطلقة خاصة به (إِيَّاكَ رَعَيْتُكَ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الحمد/5)، وتنزيهاً له من كلّ شريك (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (الأخلاص/1) (سبحان ربِّ العظيم وبحمدِه) شهادة تركز في النفس حاجتها الدائمة إلى هداية السماء في كلّ شؤون حياتها: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الْأَنْذَرِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الرَّمَغْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الصَّالِحِينَ) (الحمد/6-7)، شهادة بخالق الكون العظيم الذي خلق الكون بمقتضى رحمته (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (الحمد/1) الأمر الذي يحصر الحمد والشكر به تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (الحمد/2-3).

كلّ هذا نجده في سورة مفروضة في كلّ صلاة فـ«لا صلاة إِلَّا بفاتحة الكتاب» وهي السورة التي عبدّر عنها بأزّها خلاصة الكتاب وفاتحته والتعبير المجمل عن روحه، وقد حوت من المعاني الجليلة الشيء الكثير الكبير.

وقد جاء عن الإمام الرضا (ع) وقد سُئل عن سرّ وجوب سورة الحمد في كلّ صلاة أَنَّه قال: «لأنّه ليس شيء من القرآن والكلام جمع منه من جوامع الخير والحكمة ما جمع في سورة الحمد»[1].

ولذا فـ«كلّ» صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج»[2] أي منقوصة.

كما إِنَّا نجد التنزية الكاملة تعالى في عبارة تتكرر في الصلاة وهي (سبحان ربي العظيم وبحمده) أو (سبحان ربى الأعلى وبحمده).

فقد روى هشام بن الحكم أَنَّه سأله الصادق (ع) عن (سبحان الله) فقال: أَنْفَة إِنَّا [3]. وقد سُئل أمير المؤمنين عن معنى سبحان الله فقال: «كلمة رضيها الله تعالى لنفسه فأوصى بها»[4]. وبعد تنزيه الله تعالى وتركيز عبوديته؛ ترکز الصلاة في المسلم الشهادة للنبي العظيم بأَنَّه رسول الله الصادق، وأَنَّه عبد الأمين. مرکزة على نفي أي مطلق أمام الله في نفس الوقت الذي تقدّس فيه تلك الشخصية العظيمة وتذكر حقوقها... وبعد الشهادة للنبي بالرسالة تأتي الصلاة على محمد وآلته لتشد المسلمين إلى هؤلاء القادة دائمًا (عقائد ياً وعاطفيًا)، ولتذكّرهم بأنّ الصراط المستقيم يكمن في ذلك. وهكذا نجد أن النصوص الواردة في الصلاة يقرأها المصلي فتوحي له بإيحاءات رائعة:

* توحى له بلزوم تجسيد مضمونها في واقعه.

* توحى له بأَنَّه لا يلهم إلا بكم الله، ولا ينطر إلى الكون إلا لا يمنطار القرآن الكريم، كما قال أمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة: «كتاب الله تتنطرون به وتسمعون به وتبصرون به».

* توحى له بأن يجب أن يستمدّ دائمًا من الله، وأن عليه دائمًا أن ينصب بأوامر الله، وأن يصوغ حياته وفق رضاه وصراطه المستقيم، الذي يتميّز عن صراط المغضوب عليهم وصراط الصالحين. لأنّه صراط يرضاه الله، ولأنّه صراط الوعي والإيمان الحيّ.

* توحى بالارتباط الكامل والجهد الوثيق الذي يعطيه المؤمنون بعضهم البعض على أن يدفعوا مسيرة الإيمان إلى الأمام، وذلك يبدو أيضًا عندما ينطق المصلي بعبارة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، نعم كلّ عباد الله على امتدادهم العرضي والطولي لأنّهم يشتّرون معه في هدفه الكبير.

هذه بعض الموجبات والمعطيات التي توحى بها الألفاظ الصلاتية فتركّزها - بتكرار الصلاة - في النفوس، وتجسّد عقيدة الإنسان وعهده بالالتزام بها والقيام بمقتضياتها.

ولكن هذه الألفاظ تكتسب لها سندًا حسياً مؤثّراً بشكل بارز وهو الأعمال الصلاتية، لتأكّد بذلك وحدة الروح والجسد، المعنى والظاهر، التفكير والحس، فيرفع المصلي يديه للصلاحة - واقفاً بخشوع في مفتتح الصلاة - ثم هو يكرر هذا عند كلّ نقلة من حالة إلى أخرى ليؤكّد الوعي من جهة، ولأنّه ضرب من التبتل من جهة أخرى.

روي عن الإمام الرضا (ع) قوله: «إنما تُرفع اليدين لأنّ رفع اليدين ضرب من الابتهاج والتبتل والتضرع، ولأنّ في رفع اليدين إحضار النية وإقبال القلب».[5]

ويرکع الإنسان ويسجد على الأرض مسبّحاً ليمنح اللطف إطاراً مؤثّراً، ويعطي النفس إيحاءً فعالاً يضاعفها أَمام الله وعلوها في نفس الوقت على كلّ المطلقات الوهمية. يقول الإمام (ع): «أقرب ما يكون العبد إلى ربّه وهو ساجد».

ثم يجلس متشهداً جلسة الاحترام والتجليل وينهض قائلاً: (بحول الله وقوته أقوم وأقدر).

والملحوظ في حالات الصلاة أَنَّها تستوعب مختلف حالات الفرد النشط، وهي تعبر بذلك عن لزوم إسراء مدلل الصلة إلى كلّ حالات الإنسان بحيث لا يقوم ولا يقعد ولا يركع ولا يسجد إِلَّا وهو واعٍ لأنَّه يقوم بذلك بحول منه تعالى وقوّة. وهذا يجره إلى لزوم الشكر والحمد المتواصل الذي تكرر مواضعه في الصلاة ليتقرر في نفسه كحقيقة، وفي عمله كروح. كما إنَّ في رفع اليدين إلى الدعاء في القنوت تعبيراً جميلاً عن الاحتياج الشديد إليه تعالى، وتركيزاً لمفهوم (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/ 60).

وبعد ملاحظة الأقوال والأفعال يأتي دور ملاحظة الشروط المعتبرة في الصلاة لتضيق إلى معطيات الأقوال والأفعال معطيات أخرى تؤكّد لها وتفصّل مقتضياتها. وأوّل ما يبدو فيها مسألة (اشتراط الطهارة) فإنَّ شرط قصد القربة في الوضوء أو الغسل أو التيمم، ثم اشتراط الصلاة بالطهارة، ثم كون الصلاة عملية تطهير من الشرك يتحقّق انسجاماً رائعاً بين الحس والمعنى من جهة، ويؤكّد للإنسان عملية تطهير النفس عند الوقوف المتكرر المتواصل أمام الله العظيم. وهكذا ينغرس في أعماقه أنَّ الذنب دنس ورجس، وترتدي نفسه على أن تنظر إليها على أنَّها انحراف عن الطبيعة والقاعدة الإنسانية؛ فيجد أكبر الصعوبة النفسية لو أراد أن ينحرف. ولعلَّه من هنا وصفت الصلاة بأنَّها (تَذَهَّبُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (العنكبوت/ 45).

أمّا التوقيت: المعتبر في كلّ صلاة فهو يؤدي دوره المرسوم له. فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ الدَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَاجِرِ إِنْ قُرْآنَ الْفَاجِرِ كَانَ مَشْهُودًا) (الإسراء/ 78)، وجاء فيه (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَاتَّصِلُوا الصَّلَاةَ الْوُسْطَى وَقُوْمُوا لِتَّهْ قَانِتَيْنَ) (البقرة/ 238)، والملاحظ في الآية الأولى أنَّ ربّطها التوقيت بالظواهر الزمانية الكبرى في حياة الإنسان؛ وهي (دلوك الشمس - أي زوالها - وغسق الليل -، والفجر) والتركيز عليها يوحى بأنَّ للتوقيت معطى التذكير بذعام الله في هذه الظواهر - أوّلاً - وما أعظم تلك الذّعَم الكامنة في الشمس والليل والفجر، ثم مُعطى الالتزام ببرنامج خاص في الحياة يوافق الالتزام ببرنامج الصلاة الخاص. هذا بالإضافة إلى الغرض الأمثل من الصلاة وهو تركيز الإيمان بما خالق الكون عن طريق الوقوف بخشوع أمامة عند مواجهة حالة تبدل كوني هائل.

ويأتي بعد هذا دور الحديث عن التوجة للقبلة وهو مجال مفصل نكتفي منه بالإشارة إلى أنَّ المسلمين أُمرموا في وقت واحد - عرفياً وإن لم يكن واحداً علمياً - لأن يتوجهوا في شتّى أماكنهم إلى مكان واحد بالضبط. وذلك المكان يمثل مركز وحدة الأرض كلَّها، ومركز الاتصال بعالم الغيب، ومنطلق مسار الأنبياء الذي هو أفضل مسار للبشرية؛ ثم ليقوموا بأعمال واحدة، ولينتفقوا بلحظة واحدة كلاماً واحداً.

إنَّ هذا لم يموّر للإنسان المسلم - وخصوصاً إذا كان في صلاة جماعة - أنَّ الأرض كلَّها تتوجّه إلى البيت العتيق. فإذا لم يتوجّه قطاع معين بذلك لأنَّه منحرف وعليه هو كمسلم أن يعمل على إرجاعه إلى الوضع الطبيعي وهو الاتجاه إلى الكعبة الشريفة. كما إنَّ تلك الوحدة ترتكز في حس الإنسان كلَّ ذلك المعاني التي يعبر عنها البيت، وتشدُّه حسياً إليه كما شدَّته عقائدياً وعاطفياً إليه من قبل.

وأخيراً فإنَّ هذا التوجّه الواحد يمنح الشخصية الإسلامية صفة تميّزها عن الشخصيات الدينية الأخرى. هذا وتنشأ بذلك معطيات الصلاة مع معطيات الحج أثناء القيام بتلك العبادة الجمة الفوائد.

وهكذا نستطيع أن نلحظ بوضوح الحِكَمَ المتواخدة من اشتراط الصلاة في المكان المُباح، واللباس المُباح، وكذلك من اشتراط عدم لبس الرجل للذهب والحرير باعتبارها لا ينسجمان والجدية التي هي إحدى مقومات الرجولة وغير ذلك كثير.

[1] - الوسائل، ج 2، ص 733.

[2] - نفس المصدر.

[3] - الكافي، ج 1، ص 118.

[4] - تاج العروس، مادة سج.

[5] - الوسائل، ج 4، ص 727.